الفصل السادس

الإعجاز العلمى فى القرآن

- طلب المشركين الآيات الخارقة ورد القرآن عليهم .
- القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى .
- الإعجاز العلمى فى القرآن .
- ضوابط ومحاذير .
- المطلوب من علماء الكون المؤمنين .

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

الإعجاز العلمى فى القرآن

من خصائص القرآن الكريم : أنه كتاب « معجز » . فقد جعله الله تعالى الآية الكبرى ، والمعجزة العظمى لخاتم رسله محمد ﷺ ، بل جعله الآية الوحيدة المتحدَّى بها ، فلم يتحدّ المشركين بأى آية من الآيات التى منحه الله إياها على كثرتها وتنوعها - إلا بالقرآن . حتى آية الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وآية المعراج من المسجد الأقصىٰ إلى السموات العُلَا ، إلى سدرة المنتهى ، لم يعتبرهما القرآن آية يتحدى بها ، إنما تحدَّاهم بالقرآن ، وبالقرآن وحده .

فقد تحدَّاهم أن يأتوا بحديث مثله ، ثم تنزَّل ، فتحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور مثله « مفتريات » !

ثم تنزَّل ، فتحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ووقفوا أمام هذا التحدى - الذى تكرر فى مكة ، ثم فى المدينة - عاجزين ، بل فى سورة البقرة المدنية تحدَّاهم تحدياً آخر ، إذ أعلن أنهم - برغم استعانتهم بمن شاؤوا ومَن استطاعوا - لن يفعلوا شيئاً ، ولن يقدروا على إجابة التحدى ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وهكذا حقَّت عليهم الغَلَبة ، وخرست ألسنتهم الفصيحة برغم قوة الدوافع

---

(١) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

OBEIKAN.COM

التى تدفعهم إلى المغالبة والمقاومة للتحدى ، وصدق قول الله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ أجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١) .

* *

● إلحاح المشركين فى طلب الآيات الخارقة ورد القرآن عليهم :

كثيراً ما طلب المشركون - وألحوا فى طلبهم - آية كونية خارقة ، كالآيات التى عُرِفت عن الرُّسُل السابقين ، مثل ناقة صالح ، ومثل عصا موسى ، ومثل ما آتى الله المسيح عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكْمَه والأبرص بإذن الله ، والنفخ فى الطين المصوَّر كهيئة الطير ، فيكون طيراً بإذن الله ، ولكن القرآن لم يجبهم إلى طلبهم ، الذى حكاه عنهم فى أكثر من سورة ، ورد عليهم بأكثر من جواب .

نقرأ فى سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة الرعد : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (٣) .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (٤) .

وقد بيَّن فى أكثر من سورة : لماذا لم ينزل عليهم ما اقترحوا من الآيات الكونية ؟

---

(١) الإسراء : ٨٨ (٢) الأنعام : ٣٧

(٣) الرعد : ٧ (٤) الرعد : ٢٧

OBEIKAN.COM

ففى سورة الإسراء يقول : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ (١) .

ومعناها : أن الآيات لم تحقق الهدف من إرسالها ، وهو الإيمان بالرُّسُل ، بل كذَّبوا بالآيات ولم يعبأوا بها !

وفى سورة الشعراء يذكر سبباً آخر ، إذ يقول : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (٢) .

ومعناها : أنه لا يريد أن يلجئهم إلى الإيمان إلجاءً بآية خارقة ، تسوقهم إلى الإيمان وكأنهم مُكرَهون عليه .

بل المراد أن يدخلوا فى رحاب الإيمان باختيارهم الحر ، واقتناعهم العقلى الخالص ، دون أدنى شائبة لإكراه مادى أو معنوى - أو ما يشبهه أو يقترب منه - تخضع له أعناقهم ، وتذل له رقابهم .

وفى سورة أُخرى يرد عليهم رداً جديداً ، وهو أنَّ لديهم آية بيِّنة ، تكفيهم عن كل الآيات وهى القرآن العظيم ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

كان يكفيهم هذا الكتاب آية كبرى ، لو كانوا يعقلون ، ولكنه العناد والمكابرة والتعنت والإصرار على الباطل ، هى التى جعلتهم يبالغون فى اقتراح الآيات . ولو أنهم أُجيبوا إلى ما طلبوا ما آمنوا ، فهم يعرفون الحق ، ولكنهم يجحدونه ظلماً وعلواً ، أو بغياً وحسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق .

---

(١) الإسراء : ٥٩ (٢) الشعراء : ٤ (٣) العنكبوت : ٥٠ ، ٥١

OBEIKAN.COM

وهذا ما ذكره القرآن بصراحة مدهشة ، فى أكثر من موضع ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (١) .

ويقول عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (٢) .

* *

● القرآن هو المعجزة الكبرى :

أجل . . كان يكفيهم القرآن ، لو كانوا يبحثون - بحق وصدق - عن الحقيقة ، فهو آية الله التى أعجزت البَشر أن يأتوا بمثلها ، أو ببعضها .

وإعجاز القرآن للبَشر : موضوع رحب بحث فيه الأقدمون ، وزاد فيه المحدَثون ، ووجوه الإعجاز القرآنى كثيرة ، أظهرها : الإعجاز البيانى والأدبى ، وقد كتب فيه الكثيرون قديماً ، منهم : الإمام أبو بكر الباقلانى .

وكتب فيه الكثيرون حديثاً ، مثل الأديب المعروف : مصطفى صادق الرافعى ، وشيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه الفريد « النبأ العظيم » ، والأستاذ سيد قطب فى « التصوير الفنى فى القرآن » ، والدكتور بدوى طبانة فى كتابه « بلاغة القرآن » ، والدكتورة بنت الشاطئ فى تفسيرها البيانى للقرآن .

وهناك لون من الإعجاز أشار إليه القدماء ، وتوسَّع فيه المعاصرون ، وهو ما تضمنه القرآن من تشريعات وتوجيهات وتعاليم ، جمعت بين المثالية والواقعية ، ومزجت بين الروحانية والمادية ، ووازنت بين الدنيا والآخرة ،

---

(١) الأنعام : ١١١ (٢) الحجر : ١٤ ، ١٥

OBEIKAN.COM

ووفقت بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع ، وقد كتب فى ذلك السيد رشيد رضا كتابه الشهير « الوحى المحمدى » مجدداً فيه التحدى بالقرآن من جديد بما تضمنه من مقاصد ، وما دعا إليه من إصلاح . كما كتب فى ذلك الشيخ محمد أبو زهرة جملة مقالات تحت عنوان « شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله » نشرتها مجلة « المسلمون » الشهرية التى كان يصدرها الداعية المعروف الأستاذ سعيد رمضان رحمه الله .

* *

● الإعجاز العلمى للقرآن :

أما اللَّون الآخر من الإعجاز الذى كثر الحديث عنه فى عصرنا وانتشر انتشاراً بالغاً ، وأُلِّفت فيه الكتب ، وعُقدت له المؤتمرات ، وأُنشئت له هيئات ، واختلف الناس بين مؤيد له ومعارض ، فهو ما يُعرف بـ « الإعجاز العلمى للقرآن » .

ولا يشك متخصص متعمق فى علمه ، دارس للقرآن ، معايش له : أنه قد تضمن إشارات علمية ، بل حقائق علمية ، تُعتبر من « باب الإعجاز » . لأنها فوق مستوى العصر الذى أُنزل فيه القرآن ، والأُمة التى أُنزل لها القرآن ، والرجل الذى أُنزل عليه القرآن . فهو - باتفاق الجميع موافقين ومخالفين - أُمِّى من أُمة أُمِّية ، لا تكتب ولا تحسب . وهذا ما سجَّله القرآن بجلاء : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (١) .

من هذه الحقائق التى سجَّلها القرآن ، وسبق بها العلم الحديث : أن الماء أصل الحياة ، وأن الكائنات الحية كلها مخلوقة من الماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (٢) ، ﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾ (٣) .

---

(١) العنكبوت : ٤٨ (٢) الأنبياء : ٣٠ (٣) النور : ٤٥

OBEIKAN.COM

ومن هذه الحقائق : ظاهرة الازدواج أو « الزوجية » فى الكون كله ، لا يقتصر ذلك على الذكورة والأُنوثة فى الإنسان والحيوان ، وبعض النبات كالنخيل ، كما كان يعرف الناس فى عصر نزول القرآن ، بل هى ظاهرة كونية ، وقانون كُلِّى عام ، يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وهو ما ذكره القرآن فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . وما أروع قوله تعالى فى ختام هذه الآية : ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ليدل على أن هذه الحقيقة أكبر من علم الناس ومعارفهم فى ذلك الزمان .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وقد كان بعض المفسِّرين القدامى يتأوَّل هذه الصيغة : ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ بأن المراد بها « الأغلبية » وليست على ظاهرها ، والأصل هو بقاء الألفاظ والعبارات على ظاهرها ، دون اللجوء إلى التأويل ، إلَّا إذا وُجِد ما يمنع من ذلك ، وقد أكَّد العلم الحديث هذه « الكلية » القرآنية ، وصدق ظاهر القرآن .

ومن هذه الحقائق : ما ذكره القرآن فى أطوار تكوين الجنين منذ كان نطفة فعلقة فمُضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، إلى أن خُلقت المُضغة عظاماً ، فكسيت العظام لحماً ، ثم أنشأه الله خلقاً آخر ، وهو تصوير دقيق لم يعرفه العلم والطب إلا منذ زمن قريب . كما شهد بذلك كبار الأطباء والعلماء المتخصصون فى « علم الأجِنَّة » .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

---

(١) يس : ٣٦ (٢) الذاريات : ٤٩

الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) .

ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ (٢) .

ومن الحقائق العلمية قوله تعالى فى بيان الطبيعة الجماعية للحيوانات والطيور : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ، مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ﴾ (٣) .

ومن الإشارات القرآنية قوله تعالى فى وسائل المواصلات ، بعد أن ذكر الدواب التى كان يستخدمها الناس فى تلك العصور فى الانتقال : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

فكأنما يشير إلى ما عرفناه فى عصرنا من القطارات والسيَّارات والبواخر والطائرات والصواريخ وغيرها مما نعلمه ، وما لا نعلمه ، مما قد يأتينا به الغد المجهول . وهو نوع من الإنباء بالغيب .

ومن الإشارات القرآنية قوله تعالى فى بيان عِظَم أجرام النجوم التى يراها الإنسان فى السماء صغيرة كأنها نقطة ضوء ، وقد تكون أكبر من الأرض - كل الأرض - بملايين المرات : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (٥) .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ (٦) .

ومن الإشارات القرآنية قوله تعالى فى تأييد النظرية التى تفترض وجود

---

(١) المؤمنون : ١٢ - ١٤ (٢) الحج : ٥ (٣) الأنعام : ٣٨

(٤) النحل : ٨ (٥) الواقعة : ٧٥ ، ٧٦ (٦) النجم : ٤٩

OBEIKAN.COM

كائنات حية فى عالَم الأفلاك : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّة ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

فقوله : ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ﴾ يعود على السموات والأرض ، وقوله : ﴿ مِن دَابَّة ﴾ يدل على الأحياء التى تدب على الأرض ، وليس المراد بها الملائكة قطعاً ، لأن الملائكة مما « يطير » بجناحيه ، وليس مما « يدب » . وفى آية أخرى ما يقطع بذلك ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مِن دَابَّة وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٢) .

ومن هذه الإشارات ما ذكرناه من قبل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَة ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ (٣) . فقوله : ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ يشير إلى ما أكَّده علم النفس الحديث من تأثير الغوغائية أو ما يسمى « العقل الجَمعى » على سلامة الإدراك ، وسداد الحكم على الأشياء ، لذا طلب من الإنسان أن يفكر وحده ، أو مع صديق مخلص له ، فى هدوء وإخلاص ، حتى يصل إلى الحقيقة .

والأمثلة كثيرة ، والعلماء المتمكنون فى علومهم الكونية والرياضية ، بل والإنسانية ، الذين يعايشون القرآن - ولهم ثقافة عربية وإسلامية مناسبة - يجدون روائع فى هذا المجال ، تعجب وتروق وتبهر .

وقد اجتهد أخونا الداعية الإسلامى الشهير الشيخ عبد المجيد الزندانى بحماسه المعروف للإعجاز العلمى حتى أقام لهذا الإعجاز هيئة علمية فى رابطة العالم الإسلامى ، قدَّمت دراسات ، وأقامت مؤتمرات .

* *

● **ضوابط ومحاذير** :

وكل ما أحذر منه هنا ، ما يقوم به بعض الكاتبين المتعجلين من افتعال وتمحل ، لاستخراج معنى من آية يدخل فى « الإعجاز العلمى » ، وهو معنى مقحم على الآية متكلف لا ينبغى حمل كلام الله عليه .

---

(١) الشورى : ٢٩ (٢) النحل : ٤٩ (٣) سبأ : ٤٦

وذلك مثل قول بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (١) . ففسَّر النفس الواحدة بـ « الألكترون » فى « الذَرَّة » وزوجها الذى خُلِق منها بـ « البروتون » !

وهو اعتساف لا تدل عليه الألفاظ ولا السياق ، بل السياق يرفضه تماماً ، بدليل قوله فى تتمة الآية : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ !!

ومثل ذلك ما زعمه بعضهم : أن القرآن أشار إلى فكرة « تحطيم الذَرَّة » حين ذكر أن هناك ما هو أصغر من الذَرَّة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) . فإن كلمة « ذَرَّة » عند العرب فى عصر نزول القرآن ، وبالتالى فى القرآن : لا تدل على المعنى الاصطلاحى الذى نعرفه اليوم فى علم « الفيزياء » . ولا يجوز أن نحمل ألفاظ القرآن على المصطلحات الحادثة بعد عصر نزوله ، لأن ذلك يُعَد شروداً عن المنهج القويم فى الفهم والاستنباط .

كما لا يجوز أن ندخل فى هذا المجال « الفروض العلمية » التى لم تزل موضع أخذ ورد ، وجذب وشد ، بين أهل الاختصاص من العلماء ، فلا يليق بمن يتبنى هذه الفروض أن يحاول جر القرآن الكريم لتأييد فرضه ، وقد يثبت بطلانه بعد أمد ، فنعرِّض معه كلام الله تعالى للقيل والقال .

ومن ناحية ثالثة : لا يجوز أن يكون هذا الفهم الجديد للآية مبطلاً للأفهام السابقة ، بحيث لا ينبغى أن نتهم الأُمة كلها منذ عهد الصحابة رضى الله عنهم ، بل ربما الرَّسُول نفسه ، بأنهم لم يكونوا يفهمون الآية ، وأن كل

---

(١) النساء : ١ (٢) يونس : ٦١

OBEIKAN.COM

ما ورد عنهم فى تفسيرها باطل ، وأن المعنى الوحيد الصحيح هو ما فهمه الكاتب أو المفسِّر الجديد .

وإنما اللائق هنا أن يكون هذا المعنى إضافة جديدة ، تُضَم إلى ما سبق ، ولا تبطله ، فمن خصائص هذا القرآن : أنه « لا تنقضى عجائبه » .

وأعرف من إخواننا العلماء الطبيعيين المشغولين بدراسة القرآن ، وبالثقافة الإسلامية عامة : مَن يحرصون كل الحرص على رعاية هذه الضوابط ، واتقاء تلك المحاذير .

من هؤلاء أخونا الأستاذ الدكتور زغلول النجار أستاذ العلوم الچيولوچية ، وله كتابات متعددة فى هذا الجانب ، اتسمت بالتوازن ، والبُعْد عن الغلو .

ومن هؤلاء صديقنا الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمى أستاذ العلوم البيولوچية ، وله أكثر من دراسة ومشاركة فى هذا المجال .

ومن ذلك بحث قدَّمه فى أحد المؤتمرات عن موقف علماء الطبيعة من الثقافة الإسلامية .

* *

● ما هو مطلوب من علماء الكون المؤمنين :

وقد بيَّن فى هذا البحث ماذا ينبغى على العالِم الطبيعى المؤمن بالله تعالى ، وبرسوله الكريم ، وبكتابه العظيم ، فقال :

« ولكن ماذا هو مطلوب من علماء الطبيعة المؤمنين ؟! قلنا : إن المؤمنين أُمِروا بالنظر فى آيات الكون . وقلنا : إن هذا النظر درجات . فالتعمق فيها فرض كفاية على القادرين عليه ، ويرى الإمام الغزالى - فى « إحياء علوم الدين » - أن الطب والحساب . اللَّذين لا يُستغنى عنهما فى قوام أُمور الدنيا ، من فروض الكفايات . أما التعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب فهو بعد فضيلة لا فريضة . ولكننى لست فى حاجة إلى أن أزيد على ما قاله حُجَّة

الإسلام - رضى الله عنه - إن المسألة هنا تقديرية ، وتختلف حدودها من عصر إلى عصر ، فلا شك أن ما كان بالأمس فضيلة ، قد يصبح اليوم فريضة .

« وعلماء الطبيعة المؤمنون مكلَّفون أيضاً بتبصرة غيرهم بعلومهم وبما انتهى إليه بحثهم . وعلى القادرين منهم أن يتصدوا لخدمة كتاب الله العزيز . فمن قبل أُسست علوم النحو والصرف والبلاغة وفقه اللُّغة وما إليها من فنون العربية وآدابها ، لأسباب أهمها تقديم العون لدراسة القرآن الكريم وتدوين تفاسير له . ومن ثَمَّ سميت بالعلوم الخادمة لعلم التفسير الشريف . وأعتقد أن العلوم الطبيعية الحديثة ينبغى أن تتقدم لتنال شرف هذه الخدمة فى هذا الزمان . وهذا بالتحديد هو وظيفتها العظيمة المتواضعة . ولكن على كل مَن يتصدون للقيام بهذا الواجب أن يتخذوا الأهبة الكاملة للقيام به . ففضلاً عن تمكنهم فى علومهم ، عليهم أن يلموا إلماماً طيباً بأسرار بلاغة القرآن ، وأن يطلعوا على أُمهات كتب التفسير اطلاع المتعلم المتأنى ، لا اطلاع المتهجم العجول ، وعليهم أن يسألوا أهل الذكر فيما لا يعلمون . . وينبغى ألا يُترك هذا الأمر الجليل لكل مَن هَبّ ودَبّ !

« وآيات القرآن الكريم مُيَسَّرة للنظر الفطرى البسيط ، والنظر المتأمل المتعمق ، لأنها أُرسلت للناس كافة وفى كل زمان . فالسموات - مثلاً - آيات رائعة معجزة عند الأُمِّى وعند عالم الفلك المتخصص على السواء ، كل منهما بقدر إدراكه . والإبل فى خلقها آيات تبدو للبدوى وتخاطب فطرته السليمة ، وما زالت - فى الوقت نفسه ، وهى بالذات - تتحدى بحوث العلماء فى القرن العشرين . . وهكذا فى عشرات من الأمثلة ، وهذا سر من أسرار بلاغة القرآن : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

---

(١) فصلت : ٥٣

OBEIKAN.COM

« وعلى هذا فليس من الجائز - فى رأيى - قبول تفسير عصرى لآية من القرآن الكريم يجزم صاحبه بأنه هو وحده المراد من الآية ، وأن هذا المعنى لم يتكشف إلا فى هذا الزمان . . وإنما هو العلم ، بطبيعته النامية المرنة ، يفتح من مغاليق الأسرار كل يوم باباً ، ولا يبطل حديثه قديمه .

« إن تقديم هذه الخدمة لفهم القرآن الكريم ليس فى حاجة إلى تمحل أو افتعال ، فما أغنى كتاب الله عن هذا كله الذى يقال بمناسبة وبغير مناسبة فى هذه الآيام ، والقول بما يسمى « الإعجاز العلمى للقرآن الكريم » مسألة دقيقة للغاية ، ويجب أن يوزن بموازين علمية وتاريخية دقيقة . والحرص على ألا يوضع القرآن الكريم والعلم الحديث فى سباق ، حرص له محاذيره ، وليس له فى كثير من الأحيان ما يبرره . ولِمَ كل هذا التكلف يا سادة ؟ إنكم لا تهدون مَن أحببتهم ، فمجرد العلم وحده لا يكفى للإيمان ، إنما ينبغى أن تسبقه هذه الفطرة السليمة ، والرغبة الأكيدة لمعرفة الحق . . ولا بد له من هذه الجذوة التى يلقيها الله فى قلوب عباده الذين ينشدون معرفته .

« وقد تأكد عندى هذا المعنى - على الأخص - عندما صعد أحد رُوَّاد الفضاء الروس خارج مدار الأرض ورأى ما لم تره عينا بَشَر من مُلْك الله . فماذا قال ؟ قال ساخراً : إننى لم أر الله فى السماء ! وعندما صعد أمريكى مؤمن ، ومرَّ بالتجربة نفسها ، قال : لم أكن قريباً من الله قربى منه فى تلك اللَّحظة !

« وما من شك فى أن بعض مَن حاولوا التعليق العلمى على تفسير آى الذكر الحكيم ، قد خانهم التوفيق ، كمن تهجم على الغيبيات ، بغير علم وبلا ضرورة ، يُصوِّرها كما زيَّنها له خياله أو هواه ، أو مَن تحدَّثوا عن الذَرَّة وانشطارها ، أو عن النفاذ من أقطار السموات والأرض بسلطان العلم ، أو أن

إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها : المقصود منه هو قصر محورها العمودى بمقادير محسوبة على مدى الآلاف أو الملايين من السنين ، أو يتمحل المعانى ويشد الألفاظ من تلابيبها مدللاً على كروية الأرض ، وما إلى ذلك . فغنى عن القول أن هذا كله مخالف للعلم وللتفسير والمنطق وسياق القرآن الكريم جميعاً . ومع أن هذا يحتاج إلى رد وتصويب ، إلا أنه ليس مبرراً لأن ننكص على أعقابنا ، ولو من باب سد الذرائع ، وأذكر للمتمحلين والمفتعلين أن هذه الأُمور كلها ليست عقائد ، ثم إنها ليست فى حاجة إلى كتاب عزيز أو رسول من السماء ، والحال أنَّ الله قد وهب الإنسان خليفته فى الأرض من المَلَكات ما يستطيع بها تحصيلها وإدراكها . ثم إنها لم تكن صالحة فى معظم الأزمنة الماضية للدعوة إلى الإيمان بجوهر الدين ، لأنها سلسلة من المقدمات والنتائج لكل منها أوان مناسب له ، ووسائل متطورة لإظهاره . ومع ذلك فالقرآن الكريم - كما ذكرنا - أطلق الفكر وحثَّ الإنسان على أن يعلم ، ولكن بوسائل العلم ومداخله الطبيعية ، من التفكير والتدبر ، وإزالة الغشاوات عن الأبصار والبصائر ، وتحطيم الأقفال عن الأفئدة والعقول . . وكان هذا خيراً وأبقى من أى كتاب فى العلم ، لأنه مهما كبر حجماً أو عظم شأناً فهو كتاب محدود ، أما إيقاد جذوة الفكر وطلب العلم فهى هبة لا تخبو ونعمة لا تنتهى .

« إن موريس بوكاى ، الطبيب والباحث الفرنسى ، يقول فى كتابه الذى نشرت ترجمته العربية منذ شهور بعنوان : « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » : « لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة فى البداية ، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات عديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك فى نص كُتِب من أكثر من ثلاثة عشر

قرناً » [1] (مع تحفظى على لفظة « كُتب » . وهى فى الترجمة الإنجليزية ، التى اشترك المؤلف نفسه فى إعدادها ، اللَّفظ المقابل هو « جمع » Compiled) .

« وهو ينتهى إلى أن ما جاء فى القرآن الكريم مطبوع « بإيجاز فى القول والاتفاق مع المعطيات الحديثة للعلم » . وأنه لم يجد فى القرآن الكريم ما ينافى العلم الحديث . . . وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ [2] .

« إن توضيح تفسير القرآن الكريم بما يناسبه من حقائق العلم ، بالتحفظات التى ذكرتها والشروط التى ذكرت أهمها ، مفيد للمؤمنين يثبت إيمانهم ، ويزيل أوهامهم وشكوكهم ، ويزيدهم هدىً : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [3] . كما أنه قد يكون كذلك مقنعاً لغيرهم ممن يشرح الله قلبه للإيمان . هذا فضلاً عن تزويده طُلاب العلوم الدينية وقارئيها بمقدار من الثقافة العلمية اللازمة لحسن فهمهم لما يقرأون ، ولإلمامهم بشىء من صميم طبيعة العصر الذى يحيون فيه ، وهذا يعينهم ويزيد كفاءتهم لإرشاد الناس وهدايتهم . . فضلاً عن تقريبه للفجوة بين أهل الثقافتين ، وأخشى إن لم نفعل هذا ونحرص عليه تحول كتاب الله من رسالة خالدة متجددة الإعجاز والإقناع إلى تراث عتيق . . وهذا هو غاية ما يبتغيه أعداء الدين ، ولكنه بإذن الله لن يكون .

« وأخيراً . . ثمة أمر آخر ينبغى على علماء الطبيعة أن يفعلوه ، وعلى

---

(١) موريس بوكاى « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » ، ترجمة عربية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٤

(٢) النساء : ٨٢ (٣) الحج : ٥٤

الأخص إن كانوا معلِّمين . وهو أنه ينبغى عليهم أن يقدموا علمهم نابعاً من إيمانهم ، ومنتمياً إليهم وإلى وطنهم وبيئتهم . . . فهناك عشرات من المواضع التى يستطيعون فيها أن يُكسبوا دروسهم ومحاضراتهم ألواناً إنسانية جذَّابة للقلب والعقل معاً . بدلاً من كونها صفحات أو فصولاً مستوردة من علم الغرب ، غريبة على سامعيها ، دخيلة عليهم ، ولا يسارعنّ أحد بالرد علىَّ بأن العلم عالمى لا وطن له ، وأن حقائقه صادقة فى الغرب صدقها فى الشرق ، فهذا صحيح ، ولكننى أعتقد أن حقائق العلم يمكن أن تُقدَّم فى أساليب جديدة قريبة إلى أفهام المستمعين ونافذة إلى صميم كيانهم الذهنى . وأؤكد لكم أن هذا مستطاع دون أن ينتقص من دقة العلوم شيئاً . طبعاً مع التحفظ الواجب بتجنب التمحل والافتعال » .

* * *